

موقف الشيخ مصطفى صبري من إنكار النبوة
Sheikh Mustafa Sabri's attitude on denying prophecy

د. محمد الهادي وناس

جامعة الزيتونة - تونس، medhedi543@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/02/01 تاريخ القبول: 2025 /05/08 تاريخ النشر: 2025 /06/05

ملخص:

يتناول هذا البحث مسألة إنكار النبوة ويهتم ببيان موقف شيخ الإسلام مصطفى صبري منها؛ متعرضاً لأبرز آراء أصحاب المدرسة العقلية الحديثة في النبوة ومقولاتهم مثل توصيف النبوة بالعبرية والقول بأن النبوة إكتساب، وإلى غير ذلك مما يوحي به الفكر الغربي المادي الدخيل إلى عقول بعض المثقفين وأرباب القلم مثل الشيخ محمد عبده والكاتب عباس محمود العقاد. الأمر الذي دفع بالشيخ مصطفى صبري لتأليف كتابه موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين للرد على هذه الطروحات والأقوال المغلوطة، والتصدي لها بالنقد والدراسة والتحليل المنطقي الدقيق، ليبين عن أصالة الفكر الإسلامي ومثابته المؤسس على الإيمان بالغيب وتمييزه عن الفكر الغربي المنطلق من النظرة المادية. الكلمات المفتاحية: موقف؛ مصطفى صبري؛ إنكار؛ النبوة؛ العقل.

Abstract:

This research deals with the issue of denying prophecy and is interested in explaining the attitude of Sheikh Al-Islam Mustafa Sabri from it, exposing the most prominent views of the owners of the modern mental school in prophecy and their sayings such as describing prophecy as genius and saying that prophecy is acquisition, and other things that Western thought suggests materialistic alien to the minds of some intellectuals and pen owners such as Sheikh Muhammad Abdo and writer Abbas Mahmoud Al-Akkad. This prompted Sheikh Mustafa Sabri to write his book The Attitude of Reason, Science and the World from the Lord of the Worlds and His Servants Messengers to respond to these false propositions and sayings, and to address them with criticism, study and accurate logical analysis,

showing the originality of Islamic thought based on belief in the unseen and its distinction from Western thought based on the materialistic view.

Keywords: Attitude ; Mustafa Sabri; Denial; Prophecy ; Mind.

مقدمة:

شهد العالم الإسلامي -وبعد سقوط الدولة العثمانية أساسا- ظهور موجة حادة من الأفكار الوافدة من الغرب التي تقدس منطق العقل ولا تعير للوحي كثير اهتمام، ولم يكن الأمر ليزداد خطورة لولا أن تلقته بعض العقول والأقلام المسلمة بالإيجاب والقبول ليكون نشر تلك الأفكار الغربية الدخيلة مشروعها التنويري والذي لا يتوافق مع خصوصية الأمة الإسلامية ومعتقداتها، وأقصد بذلك أصحاب المدرسة العقلية الحديثة الذين حاولوا عبثا التوفيق بين الفكر الإسلامي المنطلق من الوحي والمؤسس على الإيمان والفكر الغربي المنطلق من النظرة المادية.

وفي خضم هذه الفوضى الفكرية برز عالم تركي يلقب بشيخ الإسلام مصطفى صبري (ت 1954م) والذي استقر به المقام في مصر ليعاين عن كثب ما يدور في أذهان مثقفيها يومئذ - الطائفة العصرية كما يسميها- والمتأثرين بالأفكار الغربية المادية التي لا تؤمن بوجود الله ولا بوجود الأنبياء، وقد أخذ الشيخ على عاتقه الدفاع عن هذه المعتقدات الإسلامية الراسخة فألف كتابه موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، وسأتناول في هذه الأسطر مسألة عقديّة مهمة وهي مسألة النبوة التي كثر حولها اللغط ولا سيما من طرف أصحاب الطائفة العصرية.

فمن هو مصطفى صبري؟ وما موقف الطائفة العصرية من النبوة؟ وما موقف الشيخ مصطفى صبري مما قرّره هذه الطائفة؟ وإلى أي مدى يمكن لمقولات وطروحات هذه الطائفة الصمود أمام وابل النقد والتحليل المنطقي الذي غشيها به الشيخ مصطفى صبري؟

المبحث الأول: نبذة عن حياة مصطفى صبري ومؤلفاته

يجدر بالباحث الذي يروم بيان موقف الشيخ مصطفى صبري من مسألة إنكار النبوة الوقوف على نبذة مختصرة تخص حياة الشيخ وآثاره العلمية أولاً، ليتسنى له بعد ذلك الولوج إلى بيان موقفه، فلا غنى للباحث -منهجياً- عن التعرف على الشخصية قبل بيان موقفها.

المطلب الأول: التعريف بمصطفى صبري

هو مصطفى صبري بن أحمد بن محمد القاز أبادي التوقادي، واسم أبيه أحمد والقاز أبادي التوقادي نسبة إلى بلد قاز آباد القريبة من مدينة توقات مسقط رأسه، تقول ابنته "نزهات هانم" حول اسم والدها "فوالدي اسمه مركب من مصطفى وصبري، أما جدي فهو أحمد وكان أحمد أفندي والد مصطفى صبري أفندي أحد علماء توقات" (شقيرات، 2002، 427/2) ومحمد محمد حسين، 1950، ص129). ويتنسب مصطفى صبري إلى العرق الأناضولي الأصيل، حيث كان أبواه أنضوليان، وأبوي أبواه كذلك أنضوليان، وأبو أبيهما من الأناضول وهكذا دواليك ليكون كل أجداده ذوو نسب أصيل من الترك (القوسي، 2006، ص77).

ولد مصطفى صبري في مدينة "توقات" وهي مدينة في الوسط الغربي لتركيا وتكتب توقاد وطوقاد وطوقات تابعة لولاية سيواس، في الثاني عشر من ربيع الأول من سنة 1286هـ، الموافق للثاني والعشرين من حزيران سنة 1869م، لأبوين أناضوليين أصيلين، وهو ما أشار إليه بنفسه في كتابه موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، مردفاً بيتين من الشعر نظمهما، مفتخراً بحدث مولده وتسميته فيقول:

أكرم به من مولدا واسما يشرفني *** بمصطفى الله في الأمرين تسويتي

فلي المزيد على ما قال قائله *** فإن لي ذمة منه بتسميتي (مصطفى صبري، 2007،

ص39)

نشأ مصطفى صبري في بيت محافظ يحب العلم، وبلدة تجل العلماء وتكرمهم، وكانت أمه امرأة تقية ذات دين، كما كان أبوه عالما يعرفه كل الناس، مما جعله يربي ابنه على التعلق بالعلم، وحلقات الدروس، لياشر مصطفى التوقادي في مسقط رأسه تلقي العلوم، فلم يتجاوز العاشرة من عمره حتى حفظ القرآن الكريم، قال بعض شيوخه لوالده أحمد أفندي إن ابنك هذا ذو عقل نير، وصاحب موهبة فذة، فلا بد أن ترسله إلى قيصرية، كي يكمل تعليمه على أيدي علمائها الكبار، فاستجاب لهم، فأرسله إلى قيصرية، فدرس فيها على يد المعلم محمد أمين أفندي الذي كان له باع في علم العقائد، والمنطق والنحو والصرف والمعاني والفقه والتفسير والحديث والوعظ والمناظرة والتلاوة، وأخذ الشيخ مصطفى صبري منه هذه العلوم كلها (شقيرات، 2002، 428/2).

ثم انتقل صبري إلى الأستانة في اسطنبول، وأتم دراسته المترتبة لعلوم الشريعة لدى الأستاذ العالم الفقيه الشيخ أحمد عاصم الكوملجنوي (ت 1329هـ / 1911م) وكيل الدرس في المشيخة الإسلامية، ففاق الشيخ مصطفى صبري أقرانه في الأستانة، وشد انتباه مشايخه، وتميز بحدة ذكائه وقوة حافظته، وعمق تحصيله ومثابرته في الطلب.

تزوج مصطفى صبري "علوية هانم" ابنة أستاذه وشيخه أحمد عاصم، فأنجبت له ثلاثة أولاد وبنتين، وهم إبراهيم وهو أكبر أولاده حيث تأثر بوالده كثيرا، وشاركه في جهاده ومحنه وأسفاره، وهو شاعر وأديب كبير، أما ابنة الشيخ الكبرى بعد إبراهيم فهي "صبيحة"، فقد تزوجت من أكبر خطاط ونقاش في مصر يدعى "محمد علي"، والذي لا تزال نقوشه موجودة إلى الآن في التقاويم المصرية، وقد توفي قبل الشيخ مصطفى صبري، ثم توفيت زوجته بعده في القاهرة. أما ابنته الثالثة فهي "نزهة"، وهي ابنة الشيخ الصغرى، تزوجت من علي وصفي توفيت سنة 1986م، وصلي عليها في جامع الفاتح بإسطنبول (القوسي، 2006، ص 85-86).

وبعد أن استقر مصطفى صبري في آخر حياته في مصر، وبالتحديد في الإسكندرية أصابه التهاب حاد دخل على أثره المستشفى، وتحسنت حالته، ثم عاد إلى القاهرة فعاوده المرض تارة

أخرى، ودخل المستشفى فيها، وفي الساعة الثامنة من صبيحة يوم الجمعة 7 رجب سنة 1373هـ الموافق 12 آذار 1954م، انتقل إلى رحمة الله تعالى عن عمر ناهز السادسة والثمانين، وشيّعت جنازته في صباح اليوم التالي، وحضرها أناس كثيرون وشخصيات علمية مرموقة مثل الشيخ محمد الخضر حسين (ت 1377هـ / 1958م)، والشيخ مبشر الطرازي (ت 1397هـ / 1977م)، ووزير الأوقاف المصري، ومفتي فلسطين الأكبر، ومفتي الديار المصرية، وجمعية شباب محمد وطلبة البعثة التركية في الأزهر، والكثير من أساتذة وعلماء مصر والأزهر، وبعض الهيئات الإسلامية (القوسي، 2006، ص157).

وسار موكب جنازته من ميدان التحرير إلى مسجد "الكخيا" بميدان الأوبرا بالقاهرة، وصلّوا عليه بإمامة شيخ الأزهر، ثم ساروا به إلى "الدراسة" في العباسية حيث دُفن هناك. وقد كان لوفاته الأثر العميق، والصدى الكبير في عموم بلاد المسلمين، وخصوصا مصر التي أعلنت نبأ وفاته في الإذاعة، وحضر تشييع جنازته ممثل رئيس الجمهورية المصري آنذاك اللواء محمد نجيب (ت 1404هـ / 1984م) (القوسي، 2006، ص158).

المطلب الثاني: التعريف بمؤلفات الشيخ مصطفى صبري

إلى جانب لسانه الصدوق وروحه المقدام، يمتلك مصطفى صبري قلما سيالا استطاع به معالجة أبرز القضايا المطروحة في عصره، والوقوف في وجه الإلحاد والفلسفات المادية المتفشية، والقوى الغربية التي تسعى إلى هدم واستئصال الهوية الإسلامية من صدور المسلمين، فأبان للناس الغث من السمين ووضح المعوج من السوي، وكتب صفحات كثيرة وطويلة سواء باللغة التركية أو اللغة العربية، فكان القلم سلاحه الأجل، الذي لا يتأخر عن الصدوع بالبيان الحق في وجه الباطل.

ويمكن رصد أبرز كتب الشيخ على النحو الآتي:

الكتب باللغة التركية

- المسائل التي هي هدف المناقشة في الإسلام. (مطبوع) / ردي على ما في القول الجيد من الردى. (مطبوع) / القيمة العلمية للمجتهدين المسلمين العصريين. (مطبوع) / المجددون الدينيون. (مطبوع) / الإمامة الكبرى في الإسلام. (مطبوع) / صوم رمضان. (مطبوع) / رسالة في الإيمان والصلاة والصوم. (مطبوع) / صيد الخاطر. (مخطوط) / حكم لبس القبعة والبرنيطة. (مطبوع) (القوسي، 2006، ص187)

الكتب باللغة العربية

- النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة. (مطبوع) / مسألة ترجمة القرآن. (مطبوع) / موقف البشر تحت سلطان القدر. (مطبوع) / قولي في المرأة ومقارنتها بأقوال مقلدة الغرب. (مطبوع) / القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون. (مطبوع) / مختارات من الشعر العربي. (مخطوط) / حاشية على كتاب نتائج الأفكار. (مخطوط) / موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين. (مطبوع)

وتجدر الإشارة إلى أن مؤلفات الشيخ مصطفى صبري قد اتسمت بطابعها الدفاعي عن العقيدة الإسلامية، ذلك أن الشيخ أخذ على عاتقه الوقوف في وجه كل زيغ أو انحراف أو شبهة، تعكر على المسلمين صفاء عقيدتهم، ووضوح شريعتهم الغراء وأحكامها، فما أن صار الانقلاب على الدولة العثمانية، وصودرت الأحكام الشرعية، وبدأت حملة التشكيك في الدين وقيمه، حتى ألف على سبيل المثال رسالة في الإيمان والصلاة والصوم وكتاب صوم رمضان، وأيضا حكم لبس القبعة والبرنيطة، كلها جاءت ردا على أفكار منحرفة وجائرة. (القوسي، 2006، ص211)

حفت بتأليف كتاب موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين -آخر ما ألف الشيخ- ظروف صعبة وشديدة، ليكون هذا الكتاب زبدة أفكار الشيخ مصطفى صبري،

والذي ألفه في مصر عندما قرر الاستقرار فيها والرحيل عن تركيا، ولأهمية هذا الكتاب سيكون محل نظر واهتمام مني أكثر من الكتب الأخرى، ولعل هذا الكتاب هو الذي يمثل فكر الشيخ مصطفى صبري.

ويمكن رصد مضامين هذا المؤلف، الذي قسمه الشيخ إلى أربعة أبواب على النحو الآتي:

الجزء الأول: خصص الشيخ مصطفى صبري الباب الأول من كتابه لإثبات وجود الله تعالى، مبتدأ فيه بمسألتين مهمتين، ناقش في الأولى موضوع الدين وهل له أساس من الصحة؟ وهل يهم الإنسان درس ذلك؟ وانتقل في الثانية إلى عقد مقارنة بين الإسلام والنصرانية، مبرزاً الفرق بينهما، ومبيناً ضرر النصرانية المحرفة على الأديان والإسلام خصوصاً. ثم قام الشيخ بتقسيم العمل في هذا الباب إلى أربعة فصول، فحمل الفصل الأول موقف العقل من الدين، وتناول الفصل الثاني موقف العلم من الدين، ليبين الفصل الثالث موقف العلم من العقل، ليختتم بفصل أخير يبرز فيه موقف التجربة من الدين، وقد حرر الشيخ جميع فصول هذا الباب، مناقشاً الفلسفات الغربية ومستندلاً على وجود الله بأدلة عديدة. (راجع مصطفى صبري، 2007، ص18)

الجزء الثاني: ركز الشيخ مصطفى صبري في الباب الثاني من كتابه على بيان موقف العالم من الله، مقسماً العمل فيه إلى فصلين، طرح في الأول مسألة وحدة الوجود مبيناً بطلان هذا المذهب بعد مناقشته، وتحليله تحليلًا منطقيًا موجهاً النقد الشديد إلى أعلام هذا المذهب، أمثال محي الدين بن عربي (ت 638هـ / 1241م)، وصدر الدين الشيرازي (ت 1050هـ / 1641م). وتناول الشيخ في الفصل الثاني مسألة حدوث العالم، وبعد تحليلها بدقة قام بالرد على الفلاسفة القائلين بقدم العالم، وبأن المادة قديمة وأزلية مستغنية عن الصانع، مبيناً تناقضهم مقولاتهم واضطراب أدلتهم. (راجع مصطفى صبري، 2007، 11/2)

الجزء الثالث: بعد إثبات وجود الله تعالى وما يتعلق به من مسائل، انتقل الشيخ مصطفى صبري في الباب الثالث لبحث مسألة إثبات إمكان المعجزة، وإثبات النبوة والنشأة

الآخرة، فشرح الشيخ بالموضوع الأول وهو اثبات المعجزة رادا على مذهب منكري معجزات الأنبياء عليهم السلام، كما ناقش الدكتور محمد حسين هيكمل (ت 1375هـ / 1956م) منتقدا كتابه حياة محمد ورد على الشيخ محمد رشيد رضا (ت 1354هـ / 1935م)، محلا ما ورد من انحرافات في كتابه الوحي المحمدي. وفي طرحه لقضية إنكار النبوة، ناقش الشيخ محمد عبده (ت 1324هـ / 1905م) والدكتور زكي مبارك (ت 1371هـ / 1952م)، لينتقل في لحظة أخيرة إلى معالجة مسألة إنكار البعث، حيث ناقش المنكرين للبعث، موردا الأدلة الشافية. (راجع مصطفى صبري، 2007، 22/3)

الجزء الرابع: في الباب الأخير من كتابه موقف العقل اهتم الشيخ صبري بمسألة جواز فصل الدين عن السياسة في الإسلام من عدمه، مبرزا ضرورة الوصل بين الدين والدولة، ومشددا في الوقت نفسه على عدم الاستهانة بأحكام الشريعة الإسلامية، محتتما بالرد على علي عبد الرازق (ت 1385هـ / 1966م) وكتابه الإسلام وأصول الحكم. (راجع مصطفى صبري، 2007، 13/4)

هكذا تتجلى لنا المكانة العلمية الراقية للشيخ مصطفى صبري مما مكّنه من تولي مناصب مهمة في الدولة العثمانية على غرار منصب مشيخة الإسلام سنة 1919م وهو المنصب الأكثر الحساسية في الدولة ليكرس من خلاله اللسان والقلم في الدفاع عن العقيدة الإسلامية والذود عن بيضة الأمة أمام ما يعرض لها من التحديات والأفكار الدخيلة والوافدة من الغرب والتي لقيت رواجاً في البلاد الإسلامية وعند الكثير من المثقفين وأرباب القلم العصريين. ولكن ترى ما موقف المعاصرين من مسألة النبوة؟

المبحث الثاني: آراء المعاصرين في مسألة النبوة

أخذت لفظة النبوة من التّب ويقصد بالتّب خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، وحق الخبر الذي يقال فيه نبأ أن يتعرّى عن الكذب (الأصفهاني، 1992، ص501)، ويُعرف

النبي شرعا بأنه الإنسان المخبر عن الله تعالى بغير وساطة أحد من البشر، وهي بعثة إلى قوم، وقد خصهم الله تعالى بالفضيلة لا لعلّة إلا لأنه شاء ذلك، فعلمهم الله العلم بدون تعلم (ابن حزم، 1320هـ، 71/2 و 72)، مما يعني أن البعثة هبة ربانية ورحمة وتكليف إلهي لمن اصطفاه من البشر، قال تعالى "وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ" [سورة الأنعام: 124]، أما النبي فهو إنسان بعثه الله تعالى إلى الخلق لتبليغ ما أوصاه إياه (الصابوني، 2003، ص14)، إلى الخلق فخرج بهذه العقيدة ما ليس بإنسان كالملائكة وهذا من تمام رحمة الله بعباده، حيث جعل الرسل من جنسهم وبشر مثلهم، ليتمكن اتصالهم بهم والأخذ عنهم، قال تعالى "لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" [سورة آل عمران: 164].

فالرسل هم وسائل بين الله تعالى وخلقه في جميع الأحكام الشرعية، وهم سفراء بينه وبين عباده (الصابوني، 2003، ص15) لأن العقول مهما بلغت من درجات الرقي والسمو، فهي قاصرة لا تستطيع الوقوف على معرفة محاسن الأمور، وقبائحها بدون معين يهدي إلى طريق الرشاد، وهذا المعين هم الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين أتدهم بالمعجزات لتكون دليل صدق لهم، وعصمهم من جميع الذنوب والخطايا لتخليص الناس في الدنيا والآخرة.

وكانت من رحمته تعالى أن ختم عهد النبوة والرسالة بمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، فلا نبي بعده ولا وحي لأحد من خلق الله بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى "مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ" [سورة الأحزاب: 40]، وفي خضم حيرة الإنسان يحس من صميم قلبه بالحاجة إلى رسول من عند ربه يسدّد خطاه.

ولكن ماهي آراء المعاصرين في مسألة النبوة؟

تفسر الطائفة العصرية - كما يسميها الشيخ مصطفى صبري قاصدا بها أصحاب المدرسة العقلية الحديثة مثل محمد عبده والعقاد وزكي مبارك- النبوة وتناقشها على أنها ظاهرة إنسانية تتعلق بالنشاط الإنساني، وأنها تقبع في زاوية من زوايا الحياة والتاريخ البشري الطويل، ومن ثم تتناولها وتدرسها وتفسرها دراسة وتفسيرا ماديين، على ضوء نظريات العلم المادي الحديث، ومن ملامح هذا التوجه يمكن ذكر هذه النقاط الآتية:

أولاً: أن النبوة ظاهرة إنسانية فردية شخصية، تخرج من ذات النبي وعبقريته الفذة، وبما يتميز به من طاقات وقوى فريدة، وبما يتأثر به من مؤثرات البيئة من حوله الفكرية والفلسفية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها.

ثانياً: وأن النبي شخصية فذة تملك قدرة عظيمة على التأثير، بما أوتيته من قوة روحانية تمنحه صفاء النفس وقوة الشعور، والقدرة على التأمل الباطني والتفكير العميق وإحساس المرهف، فتصدر عنه تعاليم وإرشادات دينية قيمة.

ثالثاً: أما أن يكون له صلة بأمر خارج ذاته -كالمملك- وخارج نطاق الإنسانية، فهذا شيء مستبعد ومشكوك فيه عند أصحاب تلك المدرسة، وقد تنكره يزعم أنه ينافي العلم الحديث. رابعاً: ومن ثم تكون الأديان السماوية -ومنها الإسلام - إنما هي -على زعمهم الباطل- نتيجة نشاط إنساني، جاءت بسبب ظروف مكانية وزمانية مؤقتة وأنها حركات إصلاحية محلية أو عالمية قابلة للرفض أو القبول والمناقشة والتبديل، وتستنفذ طاقاتها حين تزول أسبابها ويمضي عليها الزمن، أما الأنبياء فأحسن تقدير لهم من قبل العقلية الحديثة أن تجعلهم في صف الشخصيات المحترمة من العظماء والعابرة والمفكرين والفلاسفة والقادة والمشاهير والمصلحين الكبار (Şen, 2019, p22).

خامساً: وقد تراهم أو بعضهم فئة من الدجالين والمشعوذين والكهّان كما يزعمون عن الأنبياء قبل إبراهيم (العقاد، 1998، ص285).

سادسا: وهناك طائفة من العقلانيين أكثر اعتدالا في تفسيرهم للنبوة ونظرها للأنبياء، فهي تعترف بأن النبوة والرسالة اختيار إلهي لا شأن لشخص النبي فيه، وأن الأنبياء يُصطفون من الله تعالى، لكنها مع ذلك متأثرة بالاتجاه العقلي المادي وتسايره، فتعرف النبوة والأنبياء بتعريف عقلي لا يلتزم الشرعية بألفاظها التي وردت في الكتاب والسنة.

ومن ثم تعطي النبوة مفهوما متناقضا، قابلا للرد وإثارة الشبه بل قابلا للتأويل المادي الذي يفسر النبوة بأنها نشاط إنساني - كما ذكرنا - ومن ذلك تعريف الشيخ محمد عبده للنبوة -الأنف الذكر - حين عرفها بتعريف لا يلتزم المعنى الشرعي، وتعريف العلماء المجتهدين السابقين، وقال في تعريف النبي "بأنه فطر على الحقّ علما وعملا بحيث لا يعلم إلا حقا ولا يعمل إلا حقا على مقتضى الحكمة" (مصطفى صبري، 2007، 36/1). وهذا التعريف فيه تساهل وتوسع في معنى النبوة، فإنه ينطبق على النبي وغيره، فإن كل بني آدم يولدون على الفطرة، ويفطرون على الحقّ، وقد يوفق الله بعض عباده الصالحين أن لا يفعل إلا حقا على مقتضى الحكمة، وقد عرف الجمهور النبي بأنه "من يوحى إليه بشيء، فإن أمر بتبليغه فهو رسول" (الصابوني، 2003، ص16).

كما يمكن ملاحظة شيء آخر وهو أن النبي وسائر الأنبياء كسائر الناس لا يعرف الوحي، ولا تفاصيل الشرع قبل النبوة، وقد يقع في بعض الأخطاء عدا الشرك والفواحش، فقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن يعرف الحق، قال تعالى "وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ" [سورة الضحى: 7]، ومعناه أنه لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، وقد فوجئ بالنبوة، فلم يكن في نفسه أي تفكير مسبق لها، قال تعالى "وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" [سورة الشورى: 52]، ثم أن هذا التعريف لا يشير إلى اصطفاء الله لأنبيائه، ولا يشير إلى

الوحي الذي هو من لوازم النبوة، كما قال تعالى "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى" [سورة يوسف: 109] فذكر الوحي شرط في تعريف النبوة والرسالة.

فهذا التعريف تعريف فلسفي لا يثبت عند التحقيق والنظر في نصوص القرآن والسنة، وقريبا منه قوله في تفسير المنار "إنّ روح النّبي منطقية على الدين جملة من قبل أن ينزل عليه الوحي بتفصيل مسائله" (محمد رشيد رضا، 1947، 16/2) وهذا تعريف خطير يحرف الكلم عن مواضعه. ويذهب الشيخ إلى أبعد من ذلك حيث يعقب على تعريف النّبي بقوله "وذلك يكون بالفطرة، أي لا يحتاج فيه إلى الفكر والنظر، فإن فطر على دعوة بني قومه إلى ما جبل إليه فهو رسول أيضا، وإلا فهو نبي وليس برسول فتفكر فيه فإنه دقيق" (دنيا سليمان، د.ت، ص15). فهو يجعل الفطرة مكان الوحي في هذا الموقف، وهذا يخالف الوصف الشرعي للنبوة، كونه خلط بين الفطرة البشرية وبين النبوة التي هي اصطفاء طارئ بالوحي ولبعض الخلق، وهم قليل وهنا سؤال يطرح نفسه من خلال التعريف، وهو إذا كان الرسول فطر على دعوة بني قومه كما يزعم محمد عبده، فلماذا لم تحدث للنبي، ولم تتحرك لديه هذه الفطرة إلا بعد سنّ الأربعين مع توفر الدواعي والأسباب؟

ومع أننا قد نوافق الشيخ محمد عبده (ت 1905م) حينما يعد النّبي قبل اختياره للنبوة مفطورا على الفطرة السليمة والأخلاق الفاضلة والخصال الحميدة، بل إنه أفضل البشر على الإطلاق، لكن لا يعني هذا أن روحه منطقية على الدين جملة، لأنه لو كان كذلك لم يجهل جملة الإيمان، إذ قال الله عنه "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ" [سورة يونس: 52]، وقال تعالى "أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى" [سورة الضحى: 6 - 7]، أما ربط النبوة بالكهانة والسحر ومن ثم وصف الأنبياء بالكهنة، فإنه أيضا من سمات العقلية الحديثة، إذ يرى بعضهم أن النبوات ما هي إلا تدرج سام عن السحر والكهانة والتنجيم، وأن الإنسان توصل إلى النبوة بالتطور الفكري والعقلي والتجارب الطويلة التي مارسها عبر مهنة الكهانة والشعوذة، وأن النبوة حرفة أو صناعة كهنوتية راقية يمارسها النبي والرسول.

وهذا مما يميل إليه عباس محمود العقاد (ت 1964م) عندما زعم أن النبوات التي ظهرت في غير السلالة العربية، إنما هي من عمل الكهان، فيقول "إن النبوة التي تنفصل عن الكهانة خاصة لم تكرر في غير السلالة العربية، فما من ديانة كبرى أو صغرى في أنحاء العالم إلا ويستطيع المؤرخ أن يحيلها كلها من مبدأ التاريخ إلى عمل الكهان" (العقاد، 2008، ص278)، ويقول "أما ديانات الأنبياء فلا وجود لها في غير السلالة العربية" (العقاد، 2008، ص280). ولست أدري من يعني بالسلالة العربية؟ فإن كان يعني بها بني آدم كلهم فلا فائدة للتخصيص، والنبوات المذكورة في القرآن لم تخرج عن بني آدم. وإن كان يعني بالسلالة العربية من هم بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام "فإنه يقع في إنكار صريح للقرآن، فقد ذكر الله تعالى نوحا وإدريس ولوطا وصالحا وهم قبل العرب" (أحمد البسيانوي، 1986، ص16).

فهل يكون هؤلاء كهانا، وإن كان يقصد بالعرب الساميين، فكذلك يخرج منهم آدم ونوح وإدريس أيضا. ويقع عليهم حكمه بأنهم كهنة، وحاشاهم فهذا تفريق بين الرسل، والله تعالى يقول عن الرسل والمؤمنين "آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْكُمْ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ" [سورة البقرة: 285]، وقوله "إن النبوة التي تنفصل من الكهانة" يفيد أن هناك نبوات لا تنفصل من الكهانة، وهذا يعتبر خلط، فالنبوة اختيار إلهي واصطفاء من الله تعالى لواحد من خيار خلقه، ولذلك يمكن التساؤل أي نبي من الأنبياء وجد العقاد أن نبوته فيها شيء من الكهانة؟

إن العقاد في حقيقة الأمر يرى بأن النبوات في غير السلالة العربية لا تنفصل من الكهانة، لكنه لم يسم لنا هذه النبوات، لكن العقاد يصبر على أن تكون الوثنية نبوة، وأن تكون نبوات الأنبياء والمرسلين الذين اختارهم الله نبوات وثنية، فيها العبادة والسحر وفيها الخبل والصدق على حد سواء، حين يقول "بهذه الفكرة الرشيدة عن النبوة يفرق الإسلام بين طريقتين شائعتين في تاريخ الأديان، طريق موعلة في القدم تنحدر إلى مهد النبوات الوثنية، حين تشتبك العبادة

بالسحر والكهانة ثم تتقدم خطوات وئيدة يلتقي فيها الحبل باليقظة، وتختلط فيها الخرافة بالإلهام الصادق والموعظة الحسنة" (العقاد، 1985، 72/2). فما هي يا ترى النبوات الوثنية، ومتى اشتبكت العبادة بالسحر والكهانة والحبل باليقظة والخرافة بالصدق؟ وعلى يد من من الأنبياء؟

يُجيب العقاد على ضوء النظريات الغربية المادية، وخاصة نظرية التطور حين يقول "إنَّ النبوة التي تنفصل من الكهانة خاصة لم تتكرر في غير السلالة العربية" (العقاد، 2003، ص219)، وعلى هذا الزعم فالنبوات الوثنية التي اتصفت بتلك الصفات، هي نبوات نوح وآدم وإدريس ولوط وصالح، وغيرهم من رسل الله الذين أرسلوا لكل أمة من الأمم غير العربية.

فالنبوات كلها ارتكزت على التوحيد الخالص، وتنقية العقيدة من الشرك وذرائعه، لكن العقلية الحديثة ممثلة بالعقاد ومن على شاكلته، تقصد إلى أن تجعل النبوة بشرية بحتة ولا صلة لها بالله تعالى، حيث تخلط النبوة بالكهانية ولعل قول العقاد يوضح ذلك جليا، إذ يعتبر أن النبوات لم تبدأ إلا من إبراهيم عليه الصلاة والسلام، حين يقول "إن الدعوات النبوية التي بدأتها دعوة إبراهيم، سلالة لم يظهر لها نظير في غير الأمم العربية والأمم السامية" (العقاد، 2003، ص291)، وعليه فالأنبياء عند العقلايين -على أحسن تقدير- مجموعة من العظماء والعابرة والمصلحين.

ولكن ترى ما موقف شيخ الإسلام مصطفى صبري من إنكار هذه الحقيقة الإيمانية؟

المبحث الثالث: موقف مصطفى صبري من المنكرين للنبوة

ابتدأ مصطفى صبري عند تناوله مسألة النبوات بالتنبيه على مسألة مهمة جدا، وهي الربط والصلة الوثيقة بين وجود الله تعالى ووجود الأنبياء، ولذلك فالنقاش يدور مع أولئك المعترفين بوجود الله تعالى، وعن أهمية هذه المسألة يقول شيخ الإسلام مصطفى صبري "وجود الأنبياء وإن لم يكن ضروريا كضرورة وجود الله في إيضاح فلسفة العالم بجميع أجزائه، إلا أنَّ للنبوة أيضا أهمية كبيرة في إيضاح فلسفة الإنسان الذي هو جزء من أجزاء العالم، أهمية تجعلها جديرة بأن تعدَّ من أهم المطالب الفلسفية" (مصطفى صبري، 2007، 160/4).

ويرى مصطفى صبري أن ضرورة وجود الأنبياء إنما تكمن أهميتها من كونها يُستدل بها على ثبوت وجود الله، وكونه خالق الإنسان والمتصرف في أموره، حيث يقول "لا شك أن الله الذي فطر السماوات والأرض لا يصعب عليه أن يرسل رسولا إلى بني آدم، الذي هو خالقهم أيضا رسولا منهم، فيوحي إليه ما يشاء، وأن يظهر على يديه خارقة من خوارق العادات، كخلق ثعبان من العصا وهو خالق العصا والثعبان، وجميع العالم من عدم" (مصطفى صبري، 2007، 160/4).

ويقول صاحب موقف العقل "إذا كان الله موجودا وهو خالقنا وخالق كل شيء كان أول واجب الإنسان التفكير في أن خالقه لا يتركه سدى، ولا سيما وقد خلقه ممتازا على سائر خلقه بالعقل والإرادة، فيلائم عقله الذي به وجد ربه واستدل على وجوده كل الملائكة أن تكون عليه واجبات تجاه خلقه، لكن العقل لا يستطيع تعيين هذه الواجبات بالضبط والتفصيل، لا عقل أحد يفكر في نفسه، ولا قول العلماء والحكماء الذين تختلف آراؤهم ومذاهبهم في تعيين الحق والباطل والخير والشر، فلا يدري أيها يوافق مرضاة الله من تلك الآراء والمذاهب المختلفة (...)، ولو استقرّ القرار على أن يعمل كل إنسان بما يؤدي إليه فكره واجتهاده لأدى إلى الفوضى، ففي وسط هذه الحيرة والتردد يحس الإنسان من صميم قلبه بالحاجة إلى رسول من عند ربه، يسدّد خطاه ويبلغه أوامره ونواهيه، فهو وحده يكون كمنسوب رسمي من جانب الملك يحمل مرسومه من بين المندوبين من تلقاء أنفسهم" (مصطفى صبري، 2007، 160/4).

ومرسوم الله تعالى ووسامه الذي يحمله أنبياءه ورسله، هو معجزاتهم الخارقة لسنن الكون الطبيعية، ويستدل مصطفى صبري بالمعجزات والخوارق على إثبات وجود النبوة، ومن هنا يعلم أنّ المعجزة لا يمكن أن تنفك عن النبوة أبدا (راجع مصطفى صبري، 2007، 28/4)، ومما يستدل به شيخ الإسلام مصطفى صبري على وجود الأنبياء، هو لزوم البعث بعد الموت وقيام الساعة، ويقول في هذا الصدد "فلئن كان الناس مسؤولين في النشأة الثانية عن أعمالهم في الدنيا كما هو

المجزوم عندنا (...)، فوجود رسل الله الذين يوثق برسالتهم ووجود المعجزات المعرفة لأشخاصهم يكون مقتضى العدل الإلهي، قال تعالى "رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِقَلَّ يُكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا" [سورة النساء: 165]، فإذا كان موجودا وجعل للإنسان حياة أخرى يحاسبه فيها على أعماله في الحياة الأولى، كان إرسال الرسل إليهم كالضروي إن لم يكن ضروريا ضرورة وجود الله لوجود العالم" (مصطفى صبري، 2007، 157/4).

فالشيخ مصطفى صبري يعتقد بوجود رابطة وثيقة بين النشور والحساب وثبوت النبوة، فلا يمكن أن ينفك أحدهما عن الآخر، ولذا نراه ينكر على من يؤمن بالله وبوجود البعث، ثم يهمل إثبات وجود الأنبياء فيقول "والعجب أن فلاسفة الغرب المؤمنين بالله يؤمنون بالحياة الآخرة أيضا، ويعتبرونها من المطالب الفلسفية، ثم لا ينتبهون إلى الاتصال الظاهر بين وقوع الحياة الآخرة ووجود الأنبياء. أفلا يكون جزاء الإنسان من غير إرسال رسول يبلغه ما يجب عليه أن يفعله في الدنيا، أو يتجن به كمؤاخذه حكومة من الحكومات شعبها بعمل لم يسبق منها النهي عنه أو بترك عمل لم يسبق منها الأمر به؟ وأما قول القائل "ليكيف كل إنسان عقله رسولا فإنه لا يلتفت إليه، لأنه كقولنا ليجد الشعب بعقله ما تريد الحكومة أن يفعله الشعب، وما لا تريد من غير قانون ينص على الواجبات والمحظورات، ولا أصدق قيلا من الله القائل "وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا" [سورة الإسراء: 15]. (مصطفى صبري، 2007، 158/4).

ويعدّ مصطفى صبري أن هذا الدليل هو أفضل الأدلة عنده، وأثبتها للاستدلال على وجود المولى تعالى. وقد انصبّ اهتمام الشيخ في هذه المسألة —مسألة النبوة— على بيان موقف الفلاسفة منها كونهم أهملوا موضوع النبوة، في حين أنهم أفاضوا في بحث وجود الله والبعث بعد الموت، وهذا موقف المتدينين منهم أما ملاحدتهم فهم ينكرون النبوة تماما، ضمن إنكارهم الغيب طبقا لمقررات العلم المادي الحديث. ويُرجّح مصطفى صبري سبب إهمالهم للنبوة هي أنها ألبست

بالألوهية عندهم، وهذا يرجع إلى مسيحيتهم المحرّفة، فنبوة المسيح عليه السلام عندهم ما هي إلا نوع من الألوهية التي يرفضها العقل للبشر ويمجها. (راجع مصطفى صبري، 2007، 92/3).

ومع ذلك يرى شيخ الإسلام مصطفى صبري أنهم لا يعذرون في موقفهم هذا، حيث يقول "كان واجبهم البحث والتفكير في مسألة النبوة على إطلاقها، ولا يعذرون في السكوت عنها لمانع خاصّ بنبوة عيسى عند المسيحيين، ولا سيما والدين السماوي في الدنيا لا يتدبّر بالدين المسيحي، فله تاريخ قبل المسيحية وأنبياء قبل المسيح، فما هو قول فلاسفة الغرب في نبوة هؤلاء الأنبياء التي لا تشبه نبوة عيسى عليهم السلام أجمعين، والتي يلزمهم أن يصدقوها إن لم يصدقوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالغيرة المسيحية فما قولهم في تلك النبوات، ومكانها في فلسفتهم إن لم يكن محلّ في الفلسفة لنبوة المسيح على الشكل الذي يتصوره المسيحيون؟ فلو نظروا في نبوات الأنبياء ودرسوها لإعطائها حقها في الفلسفة بعد الفلسفة الإلهية، لكانوا أدّوا واجبا من واجباتهم، وربما أصلحوا بفضل درسها ما طرأ على نبوة المسيح في عقيدة النصرانية من الغلوّ المفسد للنبوة والألوهية معا (...)، ولو كان دين فلاسفة الغرب الإلهيين الإسلام، لما وقعوا في هذا المأزق". (مصطفى صبري، 2007، 154/4)

وبعد الإشارة إلى موقف الفلاسفة من النبوة، ركّز مصطفى صبري على مناقشة أصحاب الطائفة العصرية، وبيان شبهاتهم والرد عليها بغض النظر عن مراكزهم الاجتماعية ودرجاتهم الوظيفية، كاشفا عن أساس الخطأ في قولهم بالنبوة الكسبية أو بالعبقريّة الفذة، حيث قال "إنهم يسعون إلى أن يقيموا مقام نبوة محمد عبقريّة يجعلونها موضع عنايتهم، ويكتبون عنها بدلا من نبوته تفضيلا لمناقبه، التي يتفق على تعظيمها من يدين برسائله الدينية، ومن لا يدين له برسالة على التي ينفرد بتعظيمها المسلمون". (مصطفى صبري، 2007، 11/4)

نبه شيخ الإسلام على أن النبوة تنهار بانحيار المعجزات لاشتراكها في المخالفة لسنة الكون، ولذا جاء تعريف الشيخ محمد عبده للنبوة خاليا من خصائص النبوة المعروفة، كالوحي والكتاب والمعجزة وغيرها، ومن ثمّ تتحوّل النبوة بنظر العلم الحديث إلى العبقرية، وبالتالي فالنبوة منحلّة في بوتقة التأويل عند أصحاب الطائفة العصرية. فهم لا يكتبون عن عبقرية صلى الله عليه وسلم "كضميمة إلى منصب نبوته، بل مستقلة عنه ومغنية، لا سيما عن المعجزة التي تلازم النبوة، وربما يقارنون بين النبوة والعبقرية مدّعين للعبقرية الإعجاز اللازم للنبوة، وهذا أوضح دليل على كونهم مجتهدين في إهمال النبوة وترويج العبقرية بدلا منها". (مصطفى صبري، 2007، 153/4)

وكشف مصطفى صبري عن مقصود أصحاب هذه الطائفة العصرية من القول باكتساب النبوة، فقال "يريد دعاة النبوة المكتسبة أن يجعلوا النبوة ملكا مشاعا بين المجتهدين في استجماع الأوصاف اللازمة، لإرشاد الناس واقتيادهم إلى ما فيه خيرهم وصالحهم، ولا يظنّ أن المقصود من رغبتهم في أن تكون النبوة مكتسبة، محاولة فتح الطريق أمام المستعدّين لإحراز مرتبة النبوة من الناس العاديين، بل المقصود تنزيل الأنبياء إلى درجة الناس العاديين بتجريدهم من المعجزات، وغيرها مما يخالف سنة الكون". (مصطفى صبري، 2007، 150/4-151)

كما نبّه مصطفى صبري على مقصدهم من تجريد النبوة من خصائصها وإلحاقها بالعبقرية، إنما هو تفاديا من مئونة الخوارق التي تلازمهم في معجزاتهم وكيفية الإحياء إليهم (راجع مصطفى صبري، 2007، 42/4) وتركز ردّه عليهم في هذه المسألة على قولهم بالعبقرية، واكتساب النبوة وضمّها عنصرا من الألوهية، وفيما يأتي سيشير الباحث إلى ردود الشيخ الموجهة إلى هذه الشبهات.

يؤكد شيخ الإسلام مصطفى صبري أن القرآن لو كان معجزته الوحيدة على ما يدعون، فإنما هو معجزة نبوته صلى الله عليه وسلم لا عبقريته فالعبقرية لا معجزة لها، ثم إنّ إنكار النبوة وإقامة العبقرية مقامها يؤدي إلى انحيار عقيدة كون القرآن كلام الله، فليس الكتاب الذي بين

أيدينا كلام الله تعالى بل هو كلام محمد (...)، والذي يلزم أيضا أن يكون هو القرآن كاذبين في دعوى أنه لو اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، إذ لا يجزئ إنسان عاقل على أن يتحدى هذا التحدي لأي كتاب ألفه، لأن في إمكان البشر أن يأتوا بمثل كلام أحد منهم مهما كان مبلغه من القدرة على إنشاء الكلام، وهذا الكتاب أكبر منافٍ للنبوة والعبقرية معا". (مصطفى صبري، 2007، 151/4)

وكما يؤدي ذلك إلى انخيار أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث كونها وحي من عند الله، "وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ" [سورة النجم: 3 - 4]، بل اجتهادات شخصية من مصلح ديني ومرشدٍ روحي، وهذا ما يؤدي إلى انخيار الركن الثاني والمصدر الثاني من مصادر التشريع ألا وهو السنّة المطهرة.

وشدّد الشيخ مصطفى صبري على أن العبقرية مهما بلغت من درجات الكمال فلن تصل إلى مرتبة النبوة، كون الأولى شخصية بشرية والثانية محض فضل من عند الله، ويقول "إن عظمة النبوة تسمو على العظمة وتفوق كل عظيمٍ وتقصر عن مداها العبقرية، أنظر عظمة النبوة المتجلىّة في قوله تعالى "أَعْلَمُكَ بِأَخْبَعِ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ" (3) إِنْ نَشَأْ نُنزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَافُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ" [سورة الشعراء: 3 - 4]، وقوله تعالى "وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَآيَةٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ" [سورة الأنعام: 35] ، فهاتان الآيتان كما يقول مصطفى صبري تدلان على عظمة سيدنا محمد في صدقه وإخلاصه لكونهما تصارحان بتصوره في عجزه عن الإتيان بآية تخضع للناس لتصديق مدعاه عن نبوته التي لا مدعى لنفسه غيرها يمتاز به على الذين أرسل إليهم". (مصطفى صبري، 2007، 22-23).

ولو كان سيدنا محمد زعيما عظيما عبقريا لا نبيّا، فلا يكون إلا زعيما للعرب فقط دون غيرهم من المسلمين كما يدّعون، وفي هذا السياق يقول مصطفى صبري "إن محمدا العبقري من

غير نبوة لا يصير زعيم المسلمين وإنما زعيم العرب، وليس جميع العرب بل الذين لا يؤمنون بنبوته، فهو زعيمهم ونبينا نحن المسلمين لا نرتاب يوما في نبوته، ولا نبى ندافع عنه، وأنا دافعتُ عنها في هذا الكتاب لا لأن نبوته محتاجة إلى مدافعين، بل لأنني محتاج إلى شفاعته يوم يُعلم أيهما أحب إليه ممن هو نبيه أو زعيمه؟، على أن النبوة تتضمن الزعامة أيضا من غير عكس". (مصطفى صبري، 2007، 161/4)

وفيما يخص اكتساب النبوة فقد بين أن النبوة هي محض من عند الله تعالى، يختص بها من اصطفاها من عباده دون سبب وكسب، كما قال القائل إذا الخالق وهب لا تسألن عن السبب، وهذه الحالة تكون للتبي تتعدى نطاق الطبيعة وما هو محسوس ومشاهد.

حذر مصطفى صبري من عدة مخاطر تترتب على القول باكتساب النبوة، منها أن لا يكون محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، لأن باب الاكتساب يلزم أن يكون مفتوحا لكل من طلبه من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، كما يلزم أن يكون مخطئا غير معصوم، كما يلزم عدم معرفة الساعي لاكتساب النبوة أنه قد بلغ مسعاه دون وجود علامة تقنع الناس كالمعجزة، وذلك أن أنصار النبوة المكتسبة لا تعجبهم الأمور الخارجة عن سنن الكون. (راجع مصطفى صبري، 2007، 153-159/4)

وبخصوص عنصر الألوهية في النبوة، فقد رد عليه بالتفريق بين مقام النبوة ومقام الألوهية، فالأنبياء كسائر البشر في كونهم عباد للرحمن خاضعون لسلطته وقوته، لكن الله تعالى اصطفاهم من بين سائر البشر بوحيه ورسالته، وأيدهم بالمعجزات تصديقا لما جاؤوا به، ولا يوجد في كل هذا شيء من الألوهية للتبي، يقول مصطفى صبري بأن المسلمين ممن كانوا على مذاهب الأئمة الأربعة، ومن كانوا على مذهب أهل السنة والجماعة لم ينكروا في أي وقتٍ من الأوقات كون النبي إنسانا، والطائفة العصرية يتوهمون أن في النبوة الحقيقية عنصرا من الألوهية، فينكرون أن يكون الإنسان نبيا، يأتيه وحي من الله على طريقة خاصة معلومة عند الأنبياء الذين نعرفهم بأسمائهم المذكورة في القرآن.

وهذه العقلية في نظر مصطفى صبري هي عقلية قديمة جاهلية مقبلة كافتحتها القرآن في كثير من آياته، كقوله تعالى "وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَخُفُونَ كَثِيرًا وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ" [سورة الأنعام: 91]، وقوله تعالى "وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا" [سورة الفرقان: 7].

وفضلا عن ذلك فإن الله تعالى الذي خلق الإنسان وجعل فيه العقل والإدراك، ليكون صلة بينه وبين ربه من دون أن يخرج من البشرية، قادر على أن يجعل بينه وبين من اصطفاه من عباده صلة أخص من صلة العقل، وينزل عليه وحيا أوضح من وحي العقل من غير أن يخرج من البشرية؛ لأن الإعجاز يكمن في كونه بشرا ورسولا، وهنا مكمن من مكامن الإعجاز لأنه لو كان ملكا رسولا لكان الأمر طبيعيا لا إعجاز فيه، ولكن كون المبعوث بشرا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وفي نفس الوقت تجري على يديه خوارق للعادة، ويشير وينذر بهذه المعادلة صار الأمر كله إعجازا، فلو أرسل ملكا رسولا لقضي الأمر. (مصطفى صبري، 2007، 4/147-150)

خاتمة:

وفي الختام خلص البحث إلى بعض النتائج من أهمها:
أولى الشيخ مصطفى صبري أهمية بالغة لقضية إنكار النبوة؛ حيث جعل لها مساحة مخصوصة في كتابه موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده معتبرا أن إثبات وجود الأنبياء ثاني الواجبين الرئيسين - بعد إثبات وجود الله - الذين أخذ على عاتقه القيام بها، والاستدلال عليهما في سياق الرد على الفلاسفة الغربيين.

تبين جليا أن المؤمنين في هذا العصر في حاجة ماسة إلى تحقيق الإيمان، وتخليص النبوة من شر دعاة المادية والإلحاد، منبها إلى الآثار الخطيرة والسيئة لذلك الفكر الدخيل من الغرب، والذي لم تسلم منه أقلام الكثير من المثقفين والكتاب العرب والمسلمين.

أكد شيخ الإسلام مصطفى صبري في مناقشته لأصحاب الطائفة العصرية على أن منزلة النبوة تفوق بكثير منزلة العبقريّة حيث لا مجال للتعبير بالثانية عن الأولى، وأن النبوة لا تكتسب بل تمتاز بكونها فضلا من الله خاصا لمن يصطفيه من عباده، إضافة إلى أن النبوة الحقيقية ليس فيها عنصرا من الألوهية كما يتوهم المتوهمون.

أظهر الشيخ مصطفى صبري مهارة عالية في نقد أقوال المعاصرين في مسألة النبوة، وتحليلها مبرزاً أصالة الفكر الإسلامي المعاصر وقدرته على دفع الإشكالات المعرفية التي تعرض له، وهو ما يعكس الأهمية التي يمثلها كتابه موقف العقل، ليكون جديرا بالإهتمام والانكباب عليه ممن يرومون المرافعة عن عقيدة الأمة الإسلامية وخصوصيتها.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم، مصحف المدينة النبوية للنشر الحاسوبي، مجمع الملك فهد لطباعة القرآن بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.

1. الأصفهاني الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن، دار القلم، دمشق، 1992م.
2. الأندلسي ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ت محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، مطبعة التمدن، 1320/1هـ.
3. البسيانوي أحمد عز الدين، الإيمان بالرسول، دار السلام، مصر، 1986م.
4. دنيا سليمان، محمد عبدة بين الفلاسفة والمتكلمين، مطبعة الحلبي، مصر، د.ت.
5. رضا محمد رشيد، تفسير المنار، دار المنار، القاهرة، 1366/2هـ - 1947م.

6. شقيرات أحمد صدقي علي، مؤسسة شيوخ الإسلام في العهد العثماني، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، 1423/1هـ - 2002م.
7. الصابوني محمد علي، النبوة والأنبياء، المكتبة العصرية، 2003/1م.
8. صبري مصطفى، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، دار التربية، دمشق، 2007/1.
9. العقاد عباس محمود، إبراهيم أبو الأنبياء، دار الشروق، القاهرة، 1998م.
10. العقاد عباس محمود، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، دار نهضة، مصر، 1985م.
11. القوسي مفرح بن سليمان، مصطفى صبري المفكر الإسلامي والعالم العالمي وشيخ الإسلام في الدولة العثمانية سابقا، دار القلم، دمشق، 1427/1هـ - 2006م.
12. محمد حسين محمد، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، الهرم للطبع والنشر، 1950م.
13. -Mehmet Emin ŞEN, **Mustafa sabri efendinin düşüncesi sisteminde din ve diyalektik**, Doktora Tezi Danışman Prof Dr. Bayram DALKILIÇ, Necmettin erbakan Üniversitesi Sosyal Bilimler Enstütüsü, Konya, 2019.